

الجواري في العصر المملوكي

الدكتور سعود محمد العصفور

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة الكويت

Abstract

Odalisque During Mameluke Era

Mameluke sultans and amirs have competed in purchasing odalisques and getting the beautiful ones. They were keen on having odalisques for marriage, or as means of amusement and servicing, etc; and therefore, representing an essential part of the Mameluke society.

This research however is an attempt to highlight the roles taken by odalisques and the life they led during Mameluke era.

Historical studies have not paid much of attention to this class of people that is why this is research aims at bringing to light one of the elements of Mameluke era.

ملخص البحث

تتافس سلاطين وأمراء المماليك على شراء الجواري واقتناء الحسان منهن، للزواج، والأنس، والخدمة، وغير ذلك، حتى غدين جزءاً أساساً في المجتمع المملوكي. وفي البحث محاولة للوقوف على أحوال الجواري في المجتمع المملوكي، والأدوار التي قمن بها في ذاك العصر.

ولما كانت حياة تلك الفئة غالباً لا تجد عناية مناسبة في الدراسات التاريخية، فإن البحث في محتواه يكون موثقاً، وحسبه أن يلفت النظر إلى حياة أحد عناصر المجتمع المملوكي.

ليس مستغرباً أن يكون للجواري في العصر المملوكي تلك الأدوار المختلفة وذلك الاهتمام، فأساس الدولة المتمثل في الطبقة الحاكمة كانت من المماليك، ولعل اللافت في الأمر أن أولئك الحكام أدوا دور الأسياد بعد أن كانوا عبيداً أرقاء، وتنافسوا في اقتناء الرقيق بنوعيه الأبيض، والأسود، وكانت الجواري الحسان أحد مظاهر هذا التنافس.

ومن خلال ما تجمع من مادة بحثية، فإن البحث يمكن تقسيمه إلى: مصادر جلب الجواري، وأماكن بيعهن في السلطنة المملوكية، والأصول المرعية في عملية البيع والشراء، ثم نعرض حياتهن في قصور السلاطين، وبيوت الأمراء، والأعمال التي تسند إليهن، والمعاملة التي يتلقينها.

أولاً: مصادر وأماكن جلب الجواري:

عرفت الأمم الرق منذ أقدم العصور، وكانت الحروب مصدراً أساساً له، وتمثل في الأسر أو كجزء من الضريبة المفروضة على الخاسرين بعد أن أدرك المنتصرون أن الإبقاء على الأسرى أفضل من قتلهم، ولم تكن الحروب وحدها المصدر الأوحـد لجلب الجواري، فقد دفع الفقر البعض إلى بيع أولادهم أو بيع أنفسهم تخلصاً من الفقر وللحصول على لقمة العيش، وقد فطن البعض إلى ما يحققه الاسترقاق من قيمة اقتصادية فأقبلوا على خطف الصغار والكبار رجالاً ونساءً، ثم باعوهم في أسواق الرقيق، فأضحى البيع مصدراً رديفاً، وبذا اتسع الاسترقاق.

وبلاد النوبة من الأماكن الرئيسة التي يجلب منها الرقيق الأسود في زمن المماليك وقبله، وأهلها يتاجرون مع المسلمين عن طريق مبادلة الرقيق بالمواشي والحبـال والحديد والحبوب^(١). فقد أرسل السلطان الظاهر بيبرس جيشه إلى بلاد النوبة في سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م لقتال ملكها الذي دخل مدينة أسوان، ونهب ما فيها وأحرقها، فسار جيش الظاهر إليه، وتقاتل معه، وانتهى الأمر إلى إلحاق الهزيمة بجيش النوبة،

وهروب ملكها، وقتل من عسكره ما لا يحصى، وأسر أخوه وأولاده وأقاربه، وغنموا من جيش النوبة غنائم كثيرة من عبيد، وجواري، وخيول، وغير ذلك^(٢).

وكرر ملك النوبة فعلته في سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م، حيث هجم على مدينة أسوان، ونهب ما فيها، وأحرق جرونها، فلما بلغ السلطان المنصور قلاوون ذلك، أرسل الأمير أيبك الأفرم مع جماعة من العسكر، فلما وصلوا إلى هناك هرب منهم ملك النوبة، فتتبعوه إلى آخر النوبة، وهزموه شر هزيمة، وغنموا منه أشياء كثيرة، من بينها الجواري والعبيد والخيول والجمال، وغير ذلك، ورجعوا بكل ذلك إلى مصر^(٣).

وحضر ملك النوبة إلى الأبواب السلطانية^(٤) سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م، وصحبته هدية عظيمة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، منها ألف رأس رقيق من العبيد والجواري، فأكرمه السلطان وأطلع عليه^(٥).

وبلاد القفجاق أحد المصادر الأخرى لجلب الجواري، ومن ذلك أن ملكها طقطاي أرسل هدية وتحفاً وجواري كثيرة في سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م، منهن للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ومنهن للبيع، إلا أن معظم الجواري غرقن في البحر، وبقي منهن القليل، ولما حضر رسول طقطاي قدم بعضهن للسلطان الناصر، وباع الباقي^(٦).

وكان لشغف السلاطين بجمع الجواري الحسان أثره في ازدياد الجواري في العصر المملوكي، فمعرفة مستوفي الدولة شرف الدين عبد الوهاب الشهير بالنشو^(٧) بشغف السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالجواري الملاح، جعله يستعين بأشهر الناس ليدلوه في سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م على الجواري المولودات التي يحتفظ بهن أهل الوجه القبلي، وأهل الوجه البحري، وأجبر أربابهن على حمل بعضهن إليه بزعم رغبة السلطان فيهن^(٨).

وبلاد الأرمن وقاعدتها سيس^(٩) يجلب منها الجواري البيض، ومن ذلك إرسال تكفور^(١٠) ملك سيس هدية قيمة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م تتضمن الأبقار من الجواري^(١١).

كما تعد بلاد الحبشة أحد المصادر الرئيسة للرقيق الأسود، ومن ذلك قدوم رسول الحطي^(١٢) داود بن سيف أرعد ملك الحبشة بكتاب في شهر ذي الحجة من سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٧٦ م للسلطان الظاهر برقوق، وصحبته هدية عظيمة، منها الحبشيات من الجواري^(١٣).

ولما مات الحطي ملك الحبشة إسحاق بن داود جمع سعد الدين المسلم عسكره سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م وأغار على بلاد أمهرة، فقتل وأسر وسبى خلقاً كثيراً، واستسلم منهم أمم عظيمة، وأقر كل من أسلم ببلاده، وولى عليهم من يحكمهم من قبله، فانتسح نطاق ملكه، وقويت عساكره، وكثرت أموالهم، وأرسل بالسبي إلى الآفاق البعيدة، قال الخطيب الصيرفي: "فكثر الرقيق من العبيد والإماء ببلاد اليمن والهند والحجاز ومصر والشام والروم"^(١٤).

وما حل بمدينة أسوان يعد أيضاً سبباً في زيادة الرقيق، فيذكر المقرئزي أن أولاد الكنز من بعد سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م استولوا على أسوان بعد عدة حروب مع ولاية الصعيد، ثم زالت سيطرة المماليك بالكلية منذ سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م، حيث خرب إقليم الصعيد، ولم يبق للسلطان الناصر فرج بن برقوق في مدينة أسوان وال، واتضع حاله عدة سنين إلى أن زحفت قبيلة هواره في المحرم من سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م على أسوان، وحاربت أولاد الكنز، وانتصر رجال هواره على أولاد الكنز، وهزمهم، وقتلوا كثيراً من الناس، وسبوا ما هناك من النساء والأولاد، واسترقوا الجميع، ومضوا بالسبي بعد أن هدموا أسوار مدينة أسوان وتركوها خراباً يباباً^(١٥).

ويذكر ابن إياس أن زيادة النيل أدت إلى زيادة بيع الجواري، فبعد زيادة النيل في شهر جمادى الأولى من سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م غلت البزور، فبلغ القدح من بزر

القرع، وبزر الجزر، وبزر البصل، مائة درهم ونيف، وتوقفت كثير من الأراضي عن الزراعة للزيادة المفرطة في ماء النيل، وعجز الفلاحون عن بذر الحبوب ولاسيما في أراضي الصعيد، قال ابن إياس: "فإن أهلها بادوا بالجوع والبرد، وباعوا أولادهم بأبخس الأثمان، فاسترق منهم بالقاهرة خلثق، ونقل الناس منهم إلى البلاد ما لا يعد، فبيعوا في أقطار الأرض كما يباع السبي، ووطئ الجواري بملك اليمين" (١٦).

كما يجلب الرقيق الأبيض من بلاد الآص التي تقع في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة القرم، بالقرب من ثغر كافا، الذي كان من أكبر أسواق الرقيق الأبيض في العصور الوسطى (١٧).

ويذكر أن السلطان المنصور قلاوون كان يمتلك من الممالك الآص والجركس نحو ثلاثة آلاف وسبعمائة، جعلهم في أبراج القلعة، وسماهم البرجية (١٨).

ومهما يكن من أمر، فإن الممالك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد، بل من أجناس متنوعة، فمنهم التركي، والجركسي، والمغولي، والصيني، والأسباني، والألماني، واليوناني، والسلافي، وغير ذلك (١٩)، وهذا الحال انعكس أيضاً على مصادر جلب هؤلاء، إذ يظن أن تلك المناطق بعينها أو معظمها يجلب منها بيض الجواري.

ثانياً. أماكن بيع الجواري في السلطنة المملوكية:

ذكرت المصادر المتاحة بعض الأماكن التي يتم فيها بيع الجواري ضمن نطاق السلطنة المملوكية، فهناك خان مسرور الذي يقع على يمين السالك من سوق باب الزهومة (٢٠) إلى الجامع الأزهر، إذ كان ساحة يباع فيها الرقيق بعدما كان موضعه المدرسة الكاملية (٢١).

وهناك سوق الرقيق الذي يقع تجاه المدرسة الحسامية التي بناها الأمير حسام الدين طرنتاي المنصوري، ويسلك منها إلى درب العداس وإلى حارة الوزيرية (٢٢).

والجواري السود يتم بيعهن في أسواق أسيوط، والقاهرة التي كان بها وكالة خاصة لجلب هذا النوع من الجواري ، ويستطيع الفرد أن يشتري منهن ما شاء ، والسوق والوكالة كانتا بالقرب من جامع السلطان الأشرف قايتباي^(٢٣).

واختصت وكالة كشك، وخان جعفر ببيع البيض من الجواري^(٢٤) ، بالإضافة إلى خان مسرور المتقدم.

وأنشأ السلطان الأشرف قانصوه الغوري في شهر شوال من سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م سوقاً بالقرب من خان الخليلي يباع فيه الرقيق، وأبطل السوق القديم الذي كان يباع فيه الرقيق، وصار العمل على هذا السوق من يومئذ^(٢٥).

أما عن أسواق الجواري والرقيق في دمشق فهي ثلاثة. سوق برّاً أو وسوق المارستان، وسوق الشیخی، وخان الدكة أو التكة. فالجواري فائقات الحسن كن يبعن في سوق الشیخی، ومن دونهن كن يبعن في خان الدكة، حيث كانت تعرض الجواري على الدكة، وهذا الخان يقع مقابل جامع سيدي هشام في حارة الفسقار، وقد بني في حدود سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م^(٢٦). ويجري البيع في هذه الأسواق في يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع، ومعظم الرواد هم من المماليك والأثرياء من أهل دمشق^(٢٧).

ثالثاً. الأصول المرعية في بيع وشراء الجواري:

حددت المصادر الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى بيع الجواري، كما حددت الأصول المرعية في بيع وشراء الجواري. فالنخاس هو بائع الرقيق، ومنهن الجواري، وعمله يقتصر على الدلالة على الجارية التي يطلب إليه بيعها^(٢٨) ، ويشترط أن يكون أميناً، عادلاً، مشهوراً بالعفة والصيانة، لأنه يتسلم جواري الناس، وربما اختلى بهن في منزله^(٢٩).

ومن الأصول المرعية لهذه الوظيفة، فإن على النخاس ألا يبيع لأحد جارية حتى يعرف البائع، أو يأتي إليه بمن يعرفه، ويثبت اسمه وصفته في دفتره لئلا تكون الجارية المراد بيعها حرة، أو مسروقة^(٣٠)، وعليه أن يتفقد الشروط التي قد تكون بين المولى وجاريته ليعلم المشتري بذلك^(٣١)، كما لا يخفي عيباً إن كان في الجارية^(٣٢).

ومن أراد شراء جارية جاز له أن ينظر إلى وجهها وكفيها، فإن طلب استعراضها في منزله والخلوة بها فلا يمكنه النخاس من ذلك، إلا في حضرة نساء عنده، فينظرون جميع بدنها، هذا كله قبل العقد، وأما بعده فله أن ينظر إلى جميع بدن الجارية^(٣٣).

ولا يجوز التفريق بين الجارية وولدها^(٣٤) قبل سبع سنين^(٣٥)؛ كما لا يجوز بيع الجارية إذا كانت مسلمة لأحد من أهل الذمة^(٣٦) ومن ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون في شهر رجب من سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م جمع النصاري واليهود وألزمهم بالشروط التي اشترطها عليهم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمنه، ومن بينها أن يمنعوا من شراء الرقيق المسلم^(٣٧).

وقد تكرر ذلك في سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م فقد ألزم السلطان الصالح صلاح الدين ابن الناصر محمد بن قلاوون النصاري واليهود بذات الشروط بعد عادوا إلى اقتناء الجواري الجميلات من الأتراك والمولدات ولم يفرقوا بين المسلمات وغير المسلمات^(٣٨).

ويبدو أن من أسباب منع النصاري من شراء الجواري المسلمات، أنهم كانوا يسعون إلى تنصيرهن، ودليل ذلك أن شرف الدين موسى التتائي الأنصاري ناظر الجوالي طلب في يوم الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الأول من سنة ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م نصاري القاهرة لأنه بلغه أنهم يشترون الجواري المسلمات وينصرونهن، فأمرهم بإحضار ما عندهم من الجواري لينظر في أمرهن؛ فإن وجد الجارية في أصلها كانت مسلمة، أو كان الذي سبها من بلادها مسلماً ردها إلى الإسلام، وأمر صاحبها ببيعها، وقد ذكر المصدر أن شرف الدين استصفى لنفسه منهن^(٣٩).

وفي بعض الأحيان يضيق على النصارى في شراء الجواري عموماً، ولو كان ذلك الاقتناء بهدف الخدمة، ومن ذلك أن السلطان الأشرف قانصوه الغوري ألزم النصارى في شهر المحرم من سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م بمبلغ عشرين ألف دينار، وذلك بسبب أنهم يشتري لهم الجواري اللاتي يخدمهن، وقد اشتكى بعض النصارى من فعل السلطان، فحنق منهم السلطان وضيق عليهم وصادرهم^(٤٠).

ويحرم بيع الجارية لمن يتخذها للغناء^(٤١) واستشهد ابن الإخوة بقوله تعالى: "ومن الناس من يشتري لهو الحديث"^(٤٢)، وبحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تبيعوا القينات والمغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمانهن حرام"^(٤٣).

ومتى علم النخاس أن بالمبيع عيباً وجب عليه بيانه للمشتري، لذا يستلزم الأمر أن يكون النخاس بصيراً بالعيوب، خبيراً بابتداء العلل والأمراض^(٤٤).

رابعاً. الجواري في قصور السلاطين:

تتافس السلاطين في اقتناء الجواري في العصر المملوكي، ومن مظاهر ذلك:

١- أن بعض السلاطين كانت أمهاتهم في الأصل من الجواري، من ذلك أن السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م) كانت أمه جارية رومية^(٤٥). وكانت أم السلطان الملك الناصر حسن بن قلاوون (ت ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م) أم ولد^(٤٦). والسلطان الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق (ت ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م) أمه رومية^(٤٧). أما السلطان الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباي (ت ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م) فقد كانت أمه جركسية تسمى أصل باي من مشتروات أبيه^(٤٨).

٢- الهدايا التي يتلقاها السلاطين من غيرهم من الحكام والأمراء:

ذكرنا فيما سبق بعض الهدايا التي تلقاها سلاطين المماليك في معرض حديثنا عن مصادر وأماكن جلب الجواري، وهنا نذكر أمثلة أخرى تعزز كون الجواري من الهدايا القيمة التي يحرص الحكام والأمراء على تبادلها. فقد حضر نائب الشام الأمير سيف الدين تنكز إلى الأبواب الشريفة في سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م ليزور السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأحضر للسلطان هدية من بينها بيض الجواري، فسر الناصر بذلك وأكرمه، وأخلع عليه^(٤٩).

ولما أفرج السلطان الناصر حسن عن الملك المجاهد صاحب اليمن سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥١م، أهدى إلى السلطان هدية قيمة، من بينها الجواري^(٥٠).

وتواصلت عطايا الملك المجاهد صاحب اليمن للملك الناصر حسن، فقد قدم قاصده في المحرم من سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م يحمل هدية قيمة فيها الجواري الحسان^(٥١).

وإرسال الأمير بيدمر نائب الشام في شهر صفر من سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م هدية عظيمة للسلطان المنصور علي بن الأشرف شعبان على يد الأمير خضر بك، منها عشرون جارية جركسية^(٥٢).

وحرص ملوك اليمن على شراء ود سلاطين المماليك، ومن ذلك الهدية العظيمة التي أهداها الملك الأشرف ممهد الدين إسماعيل بن الأفضل عباس بن المجاهد علي بن داود في شهر ربيع الأول من سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م للسلطان الظاهر برقوق، وقد جاءت صحبة التاجر برهان الدين إبراهيم المحلي والطواشي^(٥٣) افتخار الدين فاخر، ومن بينها ست جواري^(٥٤).

وقدم هدية الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة للسلطان الظاهر جقمق في شهر شوال من سنة ٨٤٢ هـ / ١٣٤١ م، ومن جملتها جارتان^(٥٥).

٣- الهدايا التي يقدمها السلاطين للحكام الآخرين وللممراء.

ومن مظاهر اهتمام السلاطين بالجواري، وتقديرهم لأهميتهن بالنسبة لمن مائتهم من الحكام، ومن دخل تحت حكمهم من الأمراء، قاموا بإهدائهن إليهم، ومن ذلك أن السلطان المظفر قطز أنعم على الأمير بيبرس البندقداري في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م بجارية مليحة من سبايا التتار^(٥٦).

وتقديم السلطان الظاهر برقوق في شهر المحرم من سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م للقان أحمد بن أويس صاحب بغداد عندما جاءه إلى مصر عشرين جارية جركسية من الأيكار^(٥٧).

وإنعام السلطان الظاهر جقمق في شهر ربيع الأول من سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م على الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي قبل أن يسجنه ببرج الإسكندرية بعشر جوار^(٥٨).

٤- جمع سلاطين المماليك للجواري

كان سلاطين المماليك يحبون جمع الجواري، ومن ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس كانت لديه في سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م مائتا جارية، لكل جارية حلي فاخرة ما بين ذهب ولؤلؤ وفصوص^(٥٩).

وتعلق قلب السلطان الناصر محمد بن قلاوون بحب الجواري، فكتب إلى أعمال مصر ببيع الجواري المولدات، وحملن إليه، حيث بلغ عددهن في سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م عنده نحو ألف ومائتي وصيفة، وأنشأ لهن سبع قاعات التي تشرف على الميدان وباب القرافة، وأسكنهن فيها^(٦٠).

وعقد السلطان المنصور أبوبكر بن الناصر محمد بن قلاوون نكاحه في سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م على جارتين من المولدات اللاتي في بيته، وكتب صداقهما علاء الدين كاتب السر، فأنعم عليه السلطان بعشرة آلاف درهم، وأمر جمال الدين ناظر الخواص^(٦١) أن يجهزها بمائة ألف دينار^(٦٢).

وكان السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون يميل إلى حب الجواري الحبش، والمولدات، والسود، وكان يحب من يمدح له السمر، والسود، فكان الشعراء يكثرّون له من مدحهن، فمن ذلك قول زين الدين بن الوردي:

لو كان يرضى بحكمي في الناس بيض وسود
لقلت للبيض بيضوا وقلت للسود سودوا

وقال ابن نباتة:

يكون الخال في خد قبيح فيكسوه الملاحه والجمالا
كيف يلام مشغوف على من يراه كله في العين خالا

وقال آخر:

سمراء تسبي الوري بشرط كخجر هم بالرقيب
أقامه عشيقها طريقاً يسير فيه إلى القلوب (٦٣)

وزاد الصالح إسماعيل أيضاً من حبه وتعلق قلبه بجاريته نسيم حتى نظم الشعراء فيها الشعر الكثير، من ذلك قال أحدهم:

إذا زار الحبيب باشتيـاق فقد زال العنا وقت الضباح
وإن وافتك خمرأ مع نسيم فقد دام السرور بانشرافي

وقال آخر:

بدا السعد لي حين زار الحبيب وجاء الهنا ودام السرور
وجاءت نسيم بتفاحه مباركة من غزال نفور (٦٤)

وعرضت جواري السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م فبلغ عددهن خمسمائة جارية (٦٥).

وشغف الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بجواريه شغفاً زائداً، حتى اشتهر في أمرهن (٦٦).

وافتنن الأشرف برسباي في سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م بحب جاريته الجركسية جلبان، وتزوجها، وكانت بارعة الجمال، وامتنح بحبها الزائد (٦٧).

وكان للسلطان الأشرف برسباي في سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م من الجواري مائة وستون جارية يخدمه، وسبع عشرة جارية من المحظيات (٦٨).

ولما سجن السلطان الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي في بعض دور القلعة في سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م لم يستغن عند خدمه وجواريه، فقد كانت معه دادته سر النديم، الحبشية، وعدة من جواريه ما بين سراري وخدم (٦٩).

وأنعم السلطان الظاهر جقمق على ولده عثمان بجارية وصيفة في شهر ذي الحجة من سنة ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م، فبنى بها عثمان، وبُشِّرَ السلطان بذلك، فأنعم على من بشره بمائتي دينار فرحاً بولده عثمان (٧٠).

وكان السلطان الظاهر جقمق (ت ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م) كثير النكاح، له عدة سراري (٧١).

خامساً. الجواري في بيوت الأمراء:

حاكى أمراء المماليك أسيادهم من السلاطين في جمع الجواري والشغف بهن، والأمثلة في هذا السياق كثيرة، ويلاحظ أن أولئك الأمراء إذا ما تعرضوا لسخط السلاطين ومصادرة ما يملكونه، فإنه يظهر ما لديهم من أعداد مذهلة من الجواري، ومن ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما قبض على الأمير سلا، وسجنه وصادره

في سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م، وجد للأمير من المماليك والخدام والعبيد والجواري، نحو ثلاثة آلاف رأس^(٧٢).

ولما قام مستوفي الدولة شرف الدين عبد الوهاب الشهير بالنشو، بمصادرة أمير العرب شهاب الدين أحمد بن زعازع في سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م، وجد عنده نحو مائتي وعشرين جارية^(٧٣).

وعندما قبض على الأمير تتكز نائب الشام بأمر من السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م، "ظهر له من الأملاك والضياع بمصر والشام ما قوم بمائتي ألف دينار، هذا خارجاً عن الخيول، والبغال، والجمال، والغلال، والمماليك، والعبيد، والجواري، وحلي نسائه"^(٧٤).

ووجد عند الوزير علم الدين بن زنبور، لما قبض عليه بأمر السلطان الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م من الجواري والعبيد سبعمائة رأس، منهن مائتا سرية بيض، وحبش، وعثر عند نسائه وجواريه من الحلي والفصوص واللؤلؤ والقماش الفاخر ما لا يحصر^(٧٥).

ونافس الأتابكي^(٧٦) الأمير يلبغا (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) في ثرائه الفاحش السلاطين، فقد كان الوزير فخر الدين بن قزوينه يحمل إليه في كل يوم من اللحم ألف رطل، وكان مصروف سماطه كل يوم ألف دينار، هو وعياله ونساؤه وسراريه وأولاده ومماليكه^(٧٧).

وتقاسم الأمراء بعد موت السلطان الملك الأشرف شعبان في سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م جواريه، وهن من المستولدات^(٧٨).

ولما نفى الأمير بركة الجوباني، احتاط الأتابكي برقوق في ربيع الأول من سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م على ما يملك، فظهر له أشياء كثيرة منها الجواري^(٧٩).

وتوجه الأمير منطاش إلى الشام بأمر السلطان الظاهر برقوق في شهر رمضان من سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م للقبض على الأمير بيدمر الخوارزمي نائب الشام، وكلف بمصادرة جميع ممتلكاته بما فيها من الجواري، وكن كثيرات ^(٨٠).

وقبض السلطان الظاهر برقوق في شهر صفر من سنة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م على نساء وسراري الأمير جمال الدين الأستاذار ^(٨١)، وصادر أمواله، ومن بين ذلك أنه وجد عند جارية سوداء له زير كبير فيه مائة ألف دينار، كما تم مصادرة الحلبي الخاصة بنسائه وجواريه ^(٨٢).

وكثر انشغال أتابك العساكر الأمير كمشيفا الحموي اليلبغاوي (ت ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م) بجمع الجواري، والإقبال على الميزات ^(٨٣).

وأصدر السلطان الناصر فرج بن برقوق أمره في سنة ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م بإلقاء القبض على الأمير جمال الدين يوسف ألبيري لمساعدته غريم السلطان الأمير شيخ المحمودي، فقبض عليه، واحتيط على جميع ما يملكه بما في ذلك جواريه وحريمه وأثاث بيته، فظهر له ما لا يحصر ^(٨٤).

وأفرج عن الوزير تاج الخطير في آخر شهر ربيع الآخر من سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م، بعدما عوقب، وأخذت خيوله وجواريه، وظهر له من ذلك العدد الكبير ^(٨٥).

وأمر السلطان الظاهر جقمق في شهر رمضان من سنة ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م بالقبض على أبي الخير للنحاس وكيل بيت المال، فقبض عليه وضرب على سائر جسده خمسمائة عصاة، وأخذ جميع ما معه من الممالك والجواري ^(٨٦).

سادساً. الأعمال التي تسند إلى الجواري:

يسند للجواري الكثير من الأعمال في المجتمع المملوكي، فهن متعة السلاطين والأمراء وكبار الأثرياء، فمنهن المحظيات اللواتي شغف السلاطين بحبهن حتى صارت لهن المكانة الرفيعة، ومنهن المغنيات اللواتي يحضرن مجالس اللهو

والشراب، يضاف إلى ذلك ما يقمن به من أعمال متعلقة بالخدمة وغير ذلك، وقد جاء ذلك منشوراً في مصادر العصر المملوكي، ويمكن عرض ذلك على النحو الآتي:

١- مكانة جوارى السلاطين والأمراء:

كان لجوارى السلاطين والأمراء مكانتهن المرموقة داخل القصور، كما كان لهن الكلمة المسموعة عندهم بفضل أسرهن للقلوب والعقول، ومن أمثلة ذلك: تخصيص السلطان الناصر محمد بن قلاوون لجواريه سبع قاعات، أسكنهن فيها - كما سبق بيانه - رفعة لقدرهن،^(٨٧)، وبلغت جاريته حديق القهرمانية من المكانة العالية عنده ما لم تبلغه سواها من جواريه، حيث جعل كل أمور نسائه لها، فتحكمت في داره تحكماً عظيماً حتى صار لا يقال لها إلا الست حديق، ولعذوبة كلامها، وتذللها له، جعلته يلاطفها في كل حين، ويطيب خاطرها في كل موقف^(٨٨).

وشغفت حظية السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في سادس شهر ربيع الأول من سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م للأمير يلبيغا الخاصكي^(٨٩)، وأنقذته من عقوبة السلطان؛ وكان السلطان الناصر بلغه أن الأمير يلبيغا يريد قتله، وأنه اعتاد الدخول عليه في سلاحه الذي كان يخفيه تحت ثيابه، فاستدعاه، ثم أمر بنزع ثيابه كلها، وكثفت يدها للبدء في عقابه، فشغفت فيه إحدى حظايا السلطان، حتى خلى سبيله^(٩٠).

واستودع السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون جواريه أوراقه التي كتبها بخطه، واحتوت أماكن أمواله وتفصيلها، لكن الطواشي منقال الجمالي لما تعرض للعقوبة أقر بالخبر فألزمهن ذلك بالكشف عن الأموال وأماكنها في السابع من شهر صفر سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م^(٩١).

ولما ولد للأمير الكبير برقوق ولد من جاريته أردو سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م سماه محمداً، ونظراً للمكانة العالية التي كانت تتمتع بها هذه الجارية عنده، أمر بإقامة حفل عظيم بهذه المناسبة السعيدة^(٩٢).

وبلغت سراري السلطان الناصر فرج بن برقوق غاية العظمة لما خرجن صحبتته إلى الشام في شهر ذي الحجة من سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م، فقد حملن على محفات زركش^(٩٣).

والحفل البهيج الذي عمله الأمير فخر الدين لما أعرس ببعض جواري السلطان المؤيد شيخ، في الثالث من شهر المحرم سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م، فقد ذبح فيه ثمانية وعشرين فرساً، وأغناماً، بلغ زنة لحمها عشرة آلاف رطل، ومن الدجاج ألفين ومائة دجاجة، ومن الأوز ثلاثة آلاف أوزة، ومن الدقيق ستة وخمسين قنطاراً، ومن الزبيب خمسين قنطاراً^(٩٤).

وسورباي الجركسية، إحدى سراري السلطان الظاهر جقمق، كانت ناشطة اجتماعياً، ووضعت يدها في العمل الخيري، فهي صاحبة الحمام الذي يقع بالقرب من قناطر السباع، كما أنشأت سبيلاً ببولاك، ولما ماتت سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م، كانت جنازتها مشهودة من الأمراء وكبار الأعيان^(٩٥).

وكان السلطان الظاهر خشق دم، متيماً بحب سريته سورباي، محباً لذريته منها، فقد توفيت للسلطان في شهر ذي الحجة من سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م ابنة عمرها ست سنين من سريته سورباي، فحزن عليها حزناً شديداً، حتى أنه أوقف الخدمة في القصر السلطاني في يوم وفاتها^(٩٦).

وعظم حزن السلطان الأشرف قايتباي على ابنته الشابة الجميلة المتأهلة للزواج؛ وكان قد فرح بولادتها وأسمائها ست الجراكسة، وكانت أمها إحدى سراريه، فلما كان شهر رجب من سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ماتت البنت وأمها في يوم واحد، وتقدم نعش الأم على بنتها، وكانت الجنازة مشهودة من كبار الأعيان^(٩٧).

وكانت الخوند^(٩٨) أصل باي، زوجة الأشرف جانبلاط، وهي أم الناصر محمد بن قايتباي، وسرية الأشرف قايتباي، وأخت قانصوه الأشرفي صاحبة مكانة عظيمة وجاه، ومن ذلك، أنه لما أرادت الصعود إلى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء مستهل شهر

المحرم من سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م كان صعودها يوماً مشهوداً " فشقت من الصليبية وهي على محفة زركش، وحولها الخدام من أعيان الطواشية، وقدامها أعيان المباشرين، وجماعة من الخاصكية نحو خمسين إنساناً، وهم بالشاش والقماش، وجماعة من الممالك نحو مائة إنسان، وهم بالكوافي القندس والملايط^(٩٩)، وبأيديهم العصي يفسحون الناس " (١٠٠).

٢- الجواري المغنيات:

لأت الجواري المغنيات دوراً بارزاً في المجتمع المملوكي، وأضفن عليه جواً من البهجة والسعادة وخاصة عند أصحاب الثراء من السلاطين والأمراء وكبار الأعيان، وافتتن بهن الكثير من أولئك، وقاموا باستدعائهن لمجالسهم، بل حرصوا على اقتنائهن، وبذل كل نفيس لهن، والأمثلة في ذلك كثيرة. فجوق^(١٠١) المغاني، من جواري السلاطين والأمراء يبرزن في الأعراس الخاصة، ويحيين لياليها الملاح، ففي عرس الأمير علي بن أرغون النائب على ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في يوم الإثنين الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م، كان فيه ثمانى جوق من مغاني القاهرة، وعشرون جوقة من جواري السلطان والأمراء، وقد نالت كل جوقة من جوق القاهرة خمسمائة دينار، ومائة وخمسون تفصيلة^(١٠٢) حرير، أما ما نالته جواري السلطان فلا يتسعه الحصر كثرة^(١٠٣).

وهام الأمير أنوك بن الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م) عشقاً بالمغنية زهرة، فعمر لها داراً ببركة الحبش يلتقيها فيها، ولما علم والده بذلك أمر بمنعها عنه، فمرض أنوك حزناً عليها، ومازال كذلك إلى أن أُنْتُه سراً فتلهى بها عن زوجته ابنة الأمير بكتمر الساقى، وساعدته أمه في وصله لزهرة إشفاقاً عليه، لكن أنوك خاف من والده عندما جاء يضربه، فحتمته أمه منه، إلا أنه قد حصلت له رجفة كانت سبباً في ضعفه ثم موته^(١٠٤).

ولم يقف السلطان المنصور أبوبكر بن الناصر محمد بن قلاوون عن لهُوه وعُبته، فمن الأسباب التي دعت إلى خلعهِ من السلطنة في يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر المحرم سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م انشغاله بالفتيات والمغاني وشربه للخمر، وكان يطلب غلمانهُ في الليل ويبعثهُم لإحضار المغاني، فيطلعون إليه رجالاً ونساء، ويتعاقرون الخمر معه ويتهتكُن باللعب واللُهو، الأمر الذي لم يرق للأمراء الكبار، فطلبوا من الأمير طقزدمر النائب، أن يكلمهُ للكف عن إتيان ذلك لما في الأمر من مهانة لمقام السلطنة، فكلمهُ، إلا أن لومه زاده عناداً، فجاهر باللُهو حتى تحدث بأمرهِ عامة الأمراء وغيرهُم (١٠٥).

وعندما وصل الأمير ملكتمر الحجازي، إلى القاهرة في يوم الأربعاء السابع من شهر شعبان سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م قادماً من سجن الإسكندرية، تلقته زوجته بجواربها وخدامها، ومغانيها تضرب بالدفوف والشبابات (١٠٦) فرحاً به (١٠٧).

وشغف السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون بالجواري السود، وأفرط في الجارية العوادة اتفاق، وأسرف في العطاء لها، وقرب إليه أهل الملاهي، وأركب حظاياهِ الخيول العربية، وجعلهُن يتسابقن، ويلعبن الكرة (١٠٨).

وبعد إعلان نبأ وفاة السلطان الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون في الرابع من شهر ربيع الآخر من سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م دارت الجواري بالملاهي يضرين الدفوف، والمخدرات حواسر يبكينه ويلطمن الخدود لموته (١٠٩).

كما عكف السلطان الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون على معاقرة الخمر، وسماع الأغاني، والإقبال على النساء، وافتتن بحب العوادة اتفاق، حتى نالت منه السعادة، ومن ذلك أنه عمل لها بعد أن ولدت منه، دائر بيت طوله اثنان وأربعون ذراعاً، وعرضه ستة أذرع، تكلف خمسة وتسعين ألف دينار مصرية، والمخاد والمساند وغير ذلك، وكان لها أربعون بدلة مرصعة بالجواهر، وست عشرة بدلة دائرها زركش، وثمانون مقنعة تكلفت عشرين ألف درهم، وغير ذلك (١١٠).

والسلطان المظفر زين الدين حاجي افتتن أيضاً بمحبة العوادة اتفاق وشغلته عن سواها، حتى تزوجها خفية ونثر عليها الذهب واللؤلؤ، وطلب معلمها عبد علي العواد إلى القلعة ليقوم بالغناء له، ثم أجزل له العطاء، وأنعم على محظياته سلمى، والكركية، وكيدا، بالعطاء الجزيل^(١١١).

وانشغل السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون بسماع آلات الطرب، وحب القيان من النساء الملاح، وكان يقرب إليه المغنين وأرباب الفن، ويصطحبهم في أسفاره، ويطرب لسماع المغنين أمثال: دنيا الأقباعية الدمشقية، وعطعط، والدخان المشيب^(١١٢).

والجارية المغنية خوبي كانت فائقة في ضرب العود، اشتراها الأمير بكتمر الساقى بعشرة آلاف دينار مصرية، حتى يقال إنه لم يدخل مصر لها نظير، وقد أحبت سيدها، ولما بلغها موته كسرت عودها، فاشتراها الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، ثم باعها للأمير بشتاك بستة آلاف دينار، ومكثت عنده، ويقال إنه زوجها ببعض مماليكه سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م^(١١٣).

وكان للسلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي جوقة مغاني يزفونه بالطارات عند الصباح، وعند المساء، ولما مات المنصور استمرت جواريه يقمن الأفراح للناس، ويعرفن بجوقة المنصور^(١١٤).

وشغلت الجارية المغنية المشهورة دينا بنت الأقباعي عند السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون مقاماً رفيعاً، وافتتن بغنجها وغنائها، أما أمانة بنت عبد الله امرأة بن المتولي، فقد كانت ملاذه الأمن، ومكمن سره، فقد تخفى في بيتها خلال صراعه مع خصومه لفرط محبته لها، وثقته فيها^(١١٥).

ومن الجواري المغنيات اللائي أطربن السلطان الأشرف قايتباي المغنية خديجة الرحبانية، وكانت جميلة، عذبة الغناء، افنتن الناس فيها، وتغنى الشعراء بها حتى قال أحدهم:

رحبانية تخفي الشمس جمالها لها حسن إنشاد تزين مقالها
وقد خاليت بالبدر ليلة تمه فما زال من عيني وقلبي خيالها (١١٦)

وطلب الأمير أحمد ابن السلطان الأشرف إينال من مقدم الممالك السلطانية الأمير لؤلؤ (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) جارية له كانت تضرب بالجنك، فلما امتنع عن إجابته لما طلب، أضمرها الأمير في نفسه وعزله (١١٧).

٣- خدمة الجوّاري في القصور والبيوت:

ومن الأعمال التي لا تخرج عن صميم عمل الجوّاري، عملهن في خدمة قصور السلاطين وبيوت الأمراء وغيرهم من الناس، وهذا الأمر قلما نتحدث عنه المصادر، لكن نجد بعض الإشارات الدالة عليه، منها: أن الوزير فخر الدين ماجد بن خصيب كان عنده جارتان تحسان فنون الطبخ، تعرف كل واحدة منهما صنع ثمانين لونا من النقالي، سوى بقية ألوان الطعام (١١٨).

وفتك الطاعون في سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م بمائة وستين جارية تخدم في قصر السلطان الأشرف برسباي (١١٩).

وأمر السلطان الظاهر جقمق بفك قيد الأمير أبنال، ونقله من سجنه بصفد إلى موضع أوسع منه في سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م، وأن يتوجه إليه من جواريه من تخدمه (١٢٠).

٤- أعمال أخرى للجوّاري:

وهناك من الأعمال والمهام يمكن تسجيلها للجوّاري، لكنها في الغالب محددة، وناشئة عن ظرف معين، ومن ذلك:

أ- تكليفهم في مهمة محددة: فالأمير علي بن المعز أيبك لما قبض على شجر الدر ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م سلمها إلى أمه، فأمرت جواربها أن يقتلوا بالقباقيب والنعال، فضربوها حتى ماتت (١٢١).

ب - قضاء حوائج سيداتهن: فعندما منع المحتسب الأمير دولات خجا بأمر من السلطان الأشرف برسباي في سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م النساء من الخروج إلى الأسواق، سمح للإماء أن يخرجن لقضاء حوائج للحرائر؛ وكان سبب المنع ازدياد موت الناس بالطاعون، ووصية بعض العلماء للسلطان لرفع هذا الوباء أن يمنع النساء من ارتياد الأسواق نظراً لتبرجهن وتهتكهن في اللباس (١٢٢).

وقد تكرر هذا الدور في يوم الإثنين السادس من شهر جمادى الأولى سنة ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م لما منعت النساء من الخروج إلى الشوارع والأسواق إلا العجائز والجواري، فامتنعن، ثم نودي بخروج النساء من غير تبرج بزينة (١٢٣).

ج- إنقاذ أسيادهن من المكروه: فلما أراد السلطان الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي الهروب من الدار التي حبس فيها بعد عزله في يوم الإثنين رمضان من سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م، استطاعت جواربه نقب موضع من الدار بمساعدة الطباخ من الخارج، حتى تهيأ ذلك، وخرج العزيز (١٢٤).

سابعاً: معاملة الجواري في العصر المملوكي:

تمثل الجواري في العصر المملوكي طبقة مهمة من النسيج الاجتماعي، وذلك لتعدد الأدوار التي يقمن بها، فهن قريبات إلى لمعظم فئات المجتمع لدخولهن القصور والبيوت، وإطلاعهن على أسرارها، لذا تطلب الأمر أن يعاملن معاملة إنسانية لاثقة ليتم الوثام بينهن وبين فئات المجتمع، وإذا لم يتحقق ذلك صدرت عنهن سلوكيات تخرجهن عن السلوك السوي إلى ركوب الشر ونوازهه، وبيان ذلك في الآتي:

١- الإحسان إلى الجواري في عصر المماليك:

لعل أئمن شيء تتمناه كل جارية من سيدها هو أن يعتقها لتكون حرة الإرادة في نفسها وجميع شؤونها، ولقد أدرك الناس في العصر المملوكي هذا المعنى، والأمثلة، وإن لم تسعفنا المصادر في جمعها فالظن يبقى فيها حقيقة مسلمة عند أصحاب القلوب الرحيمة والأنفس التي تتصف بالنبل والشهامة، ومن ذلك: فقد كان نائب قلعة دمشق^(١٢٥) الأمير الكبير، المجاهد، المرابط، علم الدين أرجواش بن عبدالله المنصوري (ت ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م) "ذا همة، وشهامة، وقصد صالح... ولم يخلف غير أربع بنات، ووجد له من تركته من الذهب خمسة عشر ألف دينار، ومن الفضة خمسين ألف درهم، وأوصى بعنق ممالكه وجواريه، وأوقف عليهم وقفاً" (١٢٦).

وفي عزة وإياء وإقدام، وتذكر وتدبر لما يسفر عنه حال الزوجات والجواري العزيزات، قال الأمير سيف الدين أسندمر الكرجي نائب طرابلس قبل لقاء المماليك للمغول عند القريتين^(١٢٧) في سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م: "كل زوجة لي طالق، وكل جارية، وكل مملوك حر إن وليت ظهري حتى أبلغ قصدي"، فلما مات كن جواريه حرائر طليقات^(١٢٨).

وفي موقف لاقت تتجلى فيه الرحمة ونبل الأخلاق الإنسانية، أن السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون لما أعرس أحد الطواشية على إحدى سراريه في شهر ذي القعدة من سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م، عمل السلطان لهما حفلاً بهذه المناسبة حضره جميع جواري بيت السلطان، وجلبت العروس على الطواشي، ونثر السلطان عليها الذهب بيده^(١٢٩).

وفي خطوة محسوبة لها الدلالة الأكيدة على الوفاء لمن يعوله، أوصى السلطان الظاهر برقوق قبل وفاته في شهر شوال من سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م بمائتي وعشرين ألف دينار لزوجاته، وسراريه، وخدامه^(١٣٠).

وكان الأتابكي قرقماس أميراً جليلاً، أعتق جميع جواريه وعبيده قبل وفاته، وعندما مات في يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان من سنة ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م كانت جنازته مشهودة من جميع فئات المجتمع بالقاهرة^(١٣١).

واستشعاراً بالرحمة والرفقة، أرسل الأمير نوروز في شهر صفر من سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م ولده وسراريه إلى نحو جبل الطور خوفاً عليهم من الطاعون الذي عم انتشاره في مدن مصر^(١٣٢).

٢- الإساءة إلى الجواري في عصر المماليك:

الظلم لا يقبل به عاقل، وهذا الظلم إذا وقع على فئة مغلوقة على أمرها زاد من خروج صاحبها عن مألوف البشر وعن مبادئهم الفطرية المحبة للسلام، وقد تفنن البعض في الإساءة للجواري، ومن ذلك: أمر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م الوزير سنجر الشجاعي أن يحتاط على ممتلكات الأمير طرنطاي، فذهب الشجاعي إلى بيت طرنطاي واحتجز على مباشرينه، وعياله، ونسائه، وسراريه، وحاشيته، وأحضر لهم المعاصير^(١٣٣)، وعصر جماعة منهم ليقرأوا على ما لديه من أموال وذخائر، فاضطروا إلى بيان ذلك من شدة ما قاسوا من العذاب^(١٣٤).

وتهديد جواري السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون بالتوسيط^(١٣٥) في سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م إن لم يفصح عن مكانه الذي اختفى فيه، فأقررن بمكانه في بيت الأزيار؛ فهجموا عليه، فوجدوه قد دخل في الزير، وابتلت أثوابه بالماء، فقبضوا عليه من الزير^(١٣٦).

وإلقاء القبض على جواري السلطان الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي، ومنهن سر النديم دادة العزيز، ومرضعته، وجواري والده الأشرف واخضاعهن للتهديد والوعيد للتحقق من مكان اختفائه، كما ضربت جارية مسكينة كانت تتكسب بكشف

الطالع، اتهمت بأنها أخبرت أحد الطواشية بأن العزيز سوف يعود للحكم ثانية، وكان ذلك في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م^(١٣٧). وفي سبيل الاستدلال على مكان اختفاء الظاهر قانصوه ألقى القبض على جواريه في شهر ذي الحجة من سنة ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م، ثم حضر الوالي وعاقبهن، فلم يقررن بشيء^(١٣٨).

ورافع أحد المفسدين يقال له محمد بن طاهر (ت ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م) جارية بيضاء يقال لها زوجة أينال باي، وكانت ساكنة في درب الحجر بالقرب من قنطرة سنقر، وادعى عليها زوراً بأن عندها وديعة لأحد الأمراء، فلم تردّها إليه، فلما سمع السلطان الأشرف قانصوه الغوري بالأمر أمر بالقبض عليها، فقبض عليها وألزمت بدفع عشرة آلاف دينار، فباعت جميع ما تملكه وسددت بعض المبلغ، فلما رأت أنها لم تقدر على سداد بقية المبلغ وصارت حبيسة شنقت نفسها بيدها تحت جناح الليل، قال ابن إياس: "ووقعته مشهورة بين الناس، ولو عاش ابن طاهر هذا لظهر منه للناس غاية الضرر" وكلام ابن إياس يدل على أنها كانت بريئة مما نسب إليها^(١٣٩).

٣- سوء بعض الجواري في عصر المماليك:

الجزاء من جنس العمل، فكل إساءة تلحق بهذه الفئة المغلوبة على أمرها يتولد عنها تلك الأفعال التي قد تخرجها عن نطاق الرحمة والسلوك الإنساني، وقد تكون الإساءة من غير مقابل، ويتوقف الأمر على عوامل أخرى قد تكون تربوية، أو حب الشر المتأصل في بعض النفوس المريضة أو الساخطة على أحوال المجتمع أو غير ذلك، والجواري وهن إحدى فئات المجتمع قد يصدر عنهن الأذى، شأنهن شأن بنات جنسهن من الأحرار، ومن ذلك: دس جواري قاضي قضاة الحنفية زين الدين عبد الرحمن بن علي التفهني السم له، وموته بسبب ذلك في شهر شوال من سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م^(١٤٠).

وقد زف جارية لولد سيدتها البالغ من العمر ست سنين في النيل في شهر صفر من سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م، فغرق ومات، ولما عرضت الجارية على السلطان الأشرف برسبائي، أرسلها إلى قاضي المالكية شمس الدين البساطي، فحكم بتفريقها في ذات المكان الذي أغرقت فيه الولد، ونفذ ذلك بحضور الجم الغفير من الناس^(١٤٢).

واتهام الخوند سوربائي وسراري الظاهر خشقدم بسرقة عشرين ألف دينار من خزانة السلطان الأشرف قايتبائي في شهر رمضان من سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م، فاحتيط على سوربائي، ومكثت تحت الملاحظة مدة حتى رضي السلطان عنها^(١٤٢).

وقتل جارية لسيدتها بعد أنفقت سراً مع غلام على أخذ ماله والهرب سوياً، ولما قتلاه دفناه في الإسطنبول، فظهر أمرهما وقبض عليهما، ولما علم السلطان الأشرف برسبائي بالخبر أمر بشنقهما، فشنقا في شهر شوال من سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م^(١٤٣).

وصلت جارية سوداء على باب زويلة في شهر رمضان من سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م، بعد قتلها لسيدتها^(١٤٤).

وشنق جارية بيضاء جركسية على جميزة بالقرب من حدرة ابن قميحة بالقرب من الأحواض التي بطريق مصر العتيقة في شهر شوال من سنة ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م؛ وكانت الجارية قد حملت سفاحاً من أحد المماليك الجلبان للسلطان الأشرف برسبائي، فلما وضعت، قتلت طفلها من فرط خوفها، فلما علم السلطان بذلك شنق الجارية، وأغرق المملوك، وقيل في رواية أخرى أنه أخصاه ونفاه إلى الشام^(١٤٥).

وقتل جارية سوداء لسيدتها، وولد سيدتها، وشقيق سيدتها في شهر صفر من سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م، فلما عرضت على السلطان الأشرف قانصوه الغوري أمر بقطع يدها، وشهرت في شوارع القاهرة، ثم كلبت بالكلايب وعلقت في المكان الذي قتلت فيه سيدتها إلى أن ماتت^(١٤٦).

وتزوج إبراهيم بن علي الموصلي، العاتكي، الشهير بابن الملاح بجارية حبشية متهمة في شهر شعبان من سنة ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م، فدفن في مكان من داره ألف دينار، ولما أراد السفر أسر لها بمكان المال، لكنها سرقت ذلك المال وأحرقت ذاك المكان، وادعت أن اللصوص أخذوا المال، واحرقوا المكان، فتبين الأمر بعد ذلك أنها هي التي أخذته^(١٤٧).

وأمر السلطان الأشرف قانصوه الغوري في شهر ذي القعدة من ذات السنة بشنق ثلاث جواري و غلام قد قتلوا سيدتهم أم الأمير كسباي الدوادر^(١٤٨)، فشنقوا على باب سيدتهم في نفس المكان الذي قتلوها فيه^(١٤٩).

كما أمر السلطان نفسه في التاسع من شهر جمادى الآخرة سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م بشنق أربعة أشخاص، منهم جارية بيضاء رومية، وجارية حبشية، وسبب ذلك أنهم قتلوا سيد الجاريتين وألقوه في مستراح، وأخذوا ما في بيته، وسافروا إلى إطفيح، وبعد خمسة أشهر كشفت جارية صغيرة أمرهم، فقبض عليهم أحد مشايخ إطفيح وأرسلهم إلى السلطان الأشرف، فقررهم فاعترفوا بفعالته، وأرسل للكشف عن الرجل في المستراح فوجدوه وقد تقدد جلده، فأخرجوه، وأمر السلطان بدفنه، وشنق أولئك القتلة، فشنقوا في نفس المكان الذي قتلوا فيه الرجل^(١٥٠).

وبعد، فإن الجواري، وما يقمن به من أدوار مختلفة يستحقن الاهتمام في الدراسات الحضارية، لكونهن يقعن ضمن النسيج الاجتماعي، وحسب البحث أن ينجح في إبراز بعض عطائهن.

الهوامش

(١) المقريري، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريرية، طبعة دار صادر، بيروت د.ت، ج ١ ص ١٩١.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، نشر مركز تحقيق التراث بوزارة الثقافة والإرشاد القومي، نسخة الهيئة العامة المصرية للكتاب، طبعة ثانية مصورة عن الأولى، القاهرة ١٩٨٢ - ١٩٨٤ م، ج ١ ق ١ ص ٣٣٥.

(٣) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٣٥٩.

(٤) الأبواب السلطانية: هي مقام السلطان وحضرته، ويصدر عنها المكاتبات والمراسيم. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣ م، ج ٧ ص ٦١، ١٥٦ وج ٨ ص ١٣.

(٥) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٤٤١. أخلع. والاسم خلعة، أي أسبغ عليه خلعة، وترجمها.

Dozy(R.):Dictionnaire de'taille' des ve'tements chez les Arabes.Amsterdam 1845 ,p.279."Ve'tement d'honneur".

(٦) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين، نشر مركز تحقيق التراث بوزارة الثقافة المصرية، نسخة الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢ م، ج ٤ ص ٣٤٦.

(٧) عبد الوهاب بن فضل الله، القاضي شرف الدين، القبطي الأصل، ناظر الخاص في دولة الناصر، محمد بن قلاوون، وقد وثق به السلطان، فقربه، فكثرت أعداؤه، ووشوا به للسلطان، فقبض عليه وعلى أهل بيته في الثاني من شهر صفر سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م، حيث تم مصادرتهم، ثم ماتوا تحت العقاب انظر: ابن

الوردي، تتمة المختصر في أخبار بني البشر، النجف ١٩٦٩ م، ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٤ ؛ الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى، تحقيق بربارة شيفر، فيسبادن ١٩٧٨ م، ج ١ ص ٩١ ؛ المقرئى، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقرئى، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بوزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٣٤-١٩٧٣ م، ج ٢ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٧٢ م ج ٩ ص ١٣١ - ١٤٣ ؛

Zettersteen (K.V.).Beitrag Zur Geschichte der Mamluken-sultan.Brill,Leiden 1919,p.203-204.

(٨) اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الظاهر، دراسة وتحقيق أحمد حطيط، طبعة عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦ م، ص ١٣١ ؛ ج ٢ ص ٣٦١ .

(٩) سيس. بلدة في آسيا الصغرى، وهي قاعدة بلاد الأرمن. انظر. Encyclopedie de l'Islam,Ancienne edition(EI). -Buchner (V.F.).art."SIS",IV,P.453b-455b.

(١٠) تكفور: لقب يطلق على ممتلك بلاد الأرمن. انظر. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ

والوثائق، طبعة دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٨ م، ص ٢٣٣ ؛
Tournebize (Fr.):Histoire politique et religieuse de l'Armenie.Paris1900,p.231-235.

(١١) اليوسفي، المصدر السابق، ص ٤٠٥ .

- (١٢) الحطي. لقب عام لمملوك الحبشة استحدث في العصر المملوكي، وكان يذكر في المكاتبات إليهم عن السلطان في مصر. انظر: صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٥ ص ٤٨٥ وج ٨ ص ٣٩، ٤٠.
- (١٣) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٣٧٩.
- (١٤) الخطيب الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، تحقيق حسن حبشي، نشر مركز تحقيق التراث بوزارة الثقافة في جمهورية مصر العربية، نسخة مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٣ م، ج ٣، ص ٢٠٤.
- (١٥) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج ١ ص ١٩٨ - ١٩٩.
- (١٦) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٦٩٧.
- (١٧) القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤ ص ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٥ ؛ Heyd. Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age .Leipzig. 1885.II.P.556.
- (١٨) المقرئزي، السلوك، ج ١ ص ٧٥٦.
- (١٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، الطبعة الثانية، نشر دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٦ م، ص ٣٢٠.
- (٢٠) سوق باب الزهومة. من أجل أسواق القاهرة وأفخرها بحسن المأكّل وطيبها، والزهومة كان في أيام الدولة الفاطمية من أبواب القصر، وكان موضع السوق بالقرب من الصيارف، ويقابله سوق السيوفيين أما في زمن المماليك فصار سوق السيوفيين جوار سوق الصاغة إلى درب السلسلة، وسمي بالزهومة لأن اللحوم وحوائج الطعام التي كانت تدخل مطبخ القصر إنما تدخل من هذا الباب، فقيل له باب الزهومة يعني باب الزفر. الخطط المقرئزية، ج ١ ص ٤٣٥ وج ٢ ص ٩٧.

- (٢١) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج ٢ ص ٠٩٢
- (٢٢) أما درب العداس فيقع فيما بين دار الديباج والوزيرية، عرف بعلي بن عمر العداس صاحب سقيفة العداس، وأما حارة الوزيرية فهي تنسب إلى طائفة يقال لها الوزيرية من جملة طوائف العسكر، وكانت أولاً تعرف بحارة بستان المصمودي، وعرفت أيضاً بحارة الأكراد، والوزيرية منسوبة إلى الوزير الفاطمي يعقوب بن يوسف بن كلس، كان يهودياً من أهل بغداد فخرج منها إلى بلاد الشام ونزل مدينة الرملة وأقام بها فصار وكيلاً للتجار بها، فصار عليه بعض الأموال التي عجز عن سدادها ففر إلى مصر في أيام كافور الإخشيدي، فخدم كافور. المصدر السابق، ص ٥، ٤٢، ص ٣٨٦.
- (٢٣) نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، ص ٢٢٤.
- (٢٤) المرجع السابق، ص ٢٢٤.
- (٢٥) ابن إياس، المصدر السابق، ج ٤ ص ٤٠٣ - ٤٠٥.
- (٢٦) أكرم حسن العلي، خطط دمشق، نسخة دار الطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ١٩٨٩ م، ص ٤٧٣.
- (٢٧) المرجع السابق، ص ٤٤٧، ٤٥٢.
- (٢٨) الصعيدي وموسى، الإفصاح في فقه اللغة، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩ م، ص ٥٧٦.
- (٢٩) ابن الإخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

١٩٧٦ م، ص ٢٣٨ ؛ الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد
الباز العريني، الطبعة الثانية، طبع دار الثقافة، بيروت
١٩٨١م، ص ٨٤.

(٣٠) الشيزري، المصدر السابق، ص ٨٤ ؛ ابن الإخوة، المصدر السابق، ص
٢٣٨.

(٣١) ابن الإخوة، المصدر السابق، ص ٢٣٨.

(٣٢) الشيزري، المصدر السابق، ص ٨٤ ؛ ابن الإخوة، المصدر السابق، ص
٢٣٨.

(٣٣) انظر المصدرين السابقين.

(٣٤) انظر المصدرين السابقين.

(٣٥) الشيزري، المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣٦) ابن الإخوة، المصدر السابق، ص ٢٣٨ ؛ الشيزري، المصدر السابق، ٨٤.

(٣٧) المقرئزي، السلوك، ج ١ ص ٩١٠ - ٩١١، وحاشية رقم ١.

(٣٨) المصدر السابق، ج ٢ ص ٩٢٢، ٩٢٣.

(٣٩) ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق فهد محمد

شلتوت، طبع وزارة الأوقاف في جمهورية مصر العربية، لجنة إحياء التراث
الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ج ١ ص ٢٩٨.

(٤٠) ابن إياس، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٩٧.

(٤١) ابن الإخوة، المصدر السابق، ص ٢٣٨.

(٤٢) سورة لقمان، آية رقم ٦.

- (٤٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، نشر أ.ي. ونسبك و.ي.ب. منسج و.ي. برخمان، مطبعة بريل، برلين ١٩٦٥، ج ٥ ص ٥٠٦.
- (٤٤) ابن الإخوة، المصدر السابق، ص ٢٣٨ - ٢٣٩؛ الشيزري، المصدر السابق ص ٨٤.
- (٤٥) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٥١٢.
- (٤٦) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، نشر مركز تحقيق التراث، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨، ج ٥ ص ١٢٦، ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٥٧٧.
- (٤٧) ابن إياس، المصدر السابق، ج ٢ ص ٣٠١.
- (٤٨) المصدر السابق، ج ٣ ص ١٩٧، ٣٣٤.
- (٤٩) المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٤٦١.
- (٥٠) المصدر السابق، ص ٥٣٧.
- (٥١) المصدر السابق، ص ٥٧٢.
- (٥٢) المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٢٥٤.
- (٥٣) الطواشي. والجمع طواشية، وهم المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه. محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، نشر دار الفكر، دمشق ١٩٩٠م، ص ١٠٩.
- (٥٤) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٤٨٧.
- (٥٥) المقرئزي، السلوك، ج ٤ ص ١١٢٥.
- (٥٦) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٣٠٧.
- (٥٧) المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٤٦٥.

- (٥٨) المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٢٠.
- (٥٩) المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٣٣٧.
- (٦٠) المقرئزي، السلوك، ج ٢ ص ٥٤٦، والخطط المقرئزية للمؤلف نفسه، ج ٢ ص ٢١٢.
- (٦١) ناظر الخاص. هو الذي ينظر في خاص أموال السلطان. انظر. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٦٥؛ محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص ١٥٠.
- (٦٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢ ص ٥٦٦.
- (٦٣) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٥٠٥.
- (٦٤) المصدر السابق، ص ٥٠٦.
- (٦٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢ ص ٧١٥.
- (٦٦) المصدر السابق، ج ٣ ص ٦٢.
- (٦٧) الخطيب الصيرفي، المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٨٤.
- (٦٨) المصدر السابق، ج ٣ ص ٤١٣.
- (٦٩) المقرئزي، السلوك، ج ٤ ص ١٠٨٧.
- (٧٠) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ١ ص ١٧٤.
- (٧١) ابن إياس، المصدر السابق، ج ٢ ص ٣٠٠.
- (٧٢) المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٤٣٨.
- (٧٣) اليوسفي، المصدر السابق، ص ٣٤٥.
- (٧٤) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٤٧٨.
- (٧٥) المصدر السابق، ص ٥٤٥، ٥٤٦.

(٦٧) الأتابكي. يطلق على مقدم العساكر، أو القائد العام على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعاً، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل. انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤ ص ١٨؛ محمد أحمد دهمان، المرجع السابق ن ص ١١.

(٧٧) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٥١.

(٧٨) المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٧٩) المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(٨٠) ابن طولون، رسائله، نسخة كبيرة متفرقة المحتوى بمكتبة أحمد الثالث في تركيا برقم ١٣١٦، ق ٤٧؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٣٧٥.

(٨١) الأستاذار. هو المتحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، وهو الذي يمشي بطلب السلطان، ويحكم في غلماناه وباب داره، وإليه أمر الجاشنكيرية، وله مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم. انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٠.

(٨٢) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٤٧٨، ٤٨٠.

(٨٣) الخطيب الصيرفي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٦ - ٢٧.

(٨٤) ابن طولون، رسائله، ق ٥٢؛ الخطيب الصيرفي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٨٥) المقرئزي، السلوك، ج ٤ ص ١٠٩٩؛ ابن طولون، رسائله، ق ٦٤.

(٨٦) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ١ ص ٢٤١.

(٨٧) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج ٢ ص ٢١٢.

(٨٨) اليوسفي، المصدر السابق، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٨٩) الخاصكية- جماعة من المماليك السلطانية ممن دخلوا في خدمة السلطان صغاراً، يدخلون عليه بدون استئذان ويلازمونه في خلواته، ويسوقون المحمل الشريف، ويتعينون بكوامل الكفال، ويتوجهون في المهمات الشريفة، ويركبون لركوب السلطان ليلاً ونهاراً، وكان عدتهم أيام الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكياً. ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١١٥ - ١١٦ ؛
Quatremere: Histoire des Sultans Mamlouks. Paris 1969. I, 2, P. 158, n.3

(٩٠) المقرئزي، السلوك، ج ٣ ص ٦٠.

(٩١) المصدر السابق، ص ٣٥٤.

(٩٢) المصدر السابق، ص ٣٨٠.

(٩٣) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٨١٦. والمحفنة- هي الهودج، وزركش الثوب صبغه ولونه، والمعنى هودج ملون. انظر. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٥ ص ٨٣، ٤٧٠.

(٩٤) المقرئزي، السلوك، ج ٤ ص ٤٣٤.

(٩٥) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ١ ص ١٢٥ ؛ إياس، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٦٣.

(٩٦) ابن إياس، المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٤٠.

(٩٧) المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٨٨.

(٩٨) الخوند- لقب يستعمل في مخاطبة زوجات السلطان أو أقاربه. انظر. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٧ ص ١٦٦.

(٩٩) الملايط- ومفردها ملوطة، وهي ثوب واسع يلبس فوق غيره من الملابس، أو ملبوس واسع الأكمام.

- انظر - محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣ م، ص ٣٢٨.
- (١٠٠) ابن إياس، المصدر السابق، ج ٣ ص ٤٤٤ - ٤٤٥.
- (١٠١) جوق - ومفردها جوقة، مجموعة من المطربين إذا اجتمعوا، وقد تطلق أيضاً على آلات الطرب إذا عزفت سوياً. انظر - محمد قنديل البقلي، المرجع السابق، ص ٣٥٣.
- (١٠٢) تفصيلة - هي الثوب الجديد المفصل لمن يلبسه، يكون غالي الثمن. انظر - أحمد محمد دهمان، المرجع السابق، ص ٤٦.
- (١٠٣) المقريري، السلوك، ج ٢ ص ٢٤٩.
- (١٠٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ؛ نشر دار الجيل، بيروت دت، ج ١ ص ٤١٨ ؛ المقريري، السلوك، ج ٢ ص ٤٩٢.
- (١٠٥) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، طبعة، فيسبادن ١٩٧٨ م، ص ١٣٥ ؛ المقريري، السلوك، ج ٢ ص ٥٦٧ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠ ص ١٢.
- (١٠٦) الشبابات - مفردها شباة وهي الآلة المتخذة من القصب المجوف، يقال لها أيضاً " اليراع " باسم ما اتخذت منه، وهو اليراع يعني القصب، وربما عبر عنها بالمزمار العراقي - فيها سبعة أنجاش - حسب الكواكب السيارة - بسدادات، وضعت وضعاً متعارفاً، حتى تحدث النسب بين الأصوات فيها وتتصل كذلك متناسبة، فيتلذذ فيها السمع. انظر - المشهدي، كشف الهموم والكره في شرح آلة الطرب ، نسخة ميكروفيلمية مصورة عن المخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم ٣٨ ت موسيقى، ق ١٢٤ أ ؛ سعود

العصفور، الألعاب ووسائل التسلية في العصر المملوكي، مجلة كلية الآداب، جامعة حلوان، العدد ١٧، يناير ٢٠٠٥ م، ج ١ ص ٩٩٨.
(١٠٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢ ص ٥٩٥.

(١٠٨) السلوك، ج ٢ ص ٦٧٨ - ٦٧٩ لعب الكرة، ويراد هنا اللعبة المعروفة الآن باسم Polo وهي رياضة درج على ممارستها الملوك والسلاطين زمن الأيوبيين والمماليك. انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤ ص ٤٧؛
Ahsan(M.M):Social Life under the Abbasids. London, Newyourk ,Beirut. 1979, P.252-254.

(١٠٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠ ص ٩٨.
(١١٠) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠ ص ١٥٠؛ المقرئزي، السلوك، ج ٢ ص ٦٨٣، ٧١٣، ٧١٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، ج ٦ ص ١٥٠ - ١٥١.

(١١١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠ ص ١٥٣ - ١٥٤؛ المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٢١؛ النعمي، العنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث بتركيا برقم ٤٥٦ - تاريخ، ورقة ٣٥.

(١١٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣ ص ٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠ ص ٣١٥؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩١٩م، ج ١، ص ١٦٣ - ١٦٤؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٥٧٩.

(١١٣) ابن قاضي شعبة، تاريخه، تحقيق عدنان درويش، نشر المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، طباعة مشتركة بين المعهد المذكور، والجفان للطباعة والنشر، دمشق ١٩٩٤م، مج ٢، ج ١ ص ٦٥٨.

(١١٤) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٦٩٣ وج ١ ق ٢ ص ٥١١.

- (١١٥) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج ١ ص ١٢٩ - ١٣٠، ١٦٣ - ١٦٤ ؛
ابن قاضي شهبه، المصدر السابق، مج ٣ ج ٢ ص ٥٦١ .
- (١١٦) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت،
د . ت . ج ١٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج ٣ ص ١٨٥ .
- (١١٧) الخطيب الصيرفي، إنباء العصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، طباعة
ونشر دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٠ م، ص ٩١ .
- (١١٨) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٥٧٤ .
- (١١٩) الخطيب الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ٣ ص ٨١٤ .
- (١٢٠) المقرئزي، السلوك، ج ٤ ص ١١٨٩ .
- (١٢١) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٢٩٤ .
- (١٢٢) الخطيب الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ٣ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .
- (١٢٣) المقرئزي، السلوك، ج ٤ ص ١٢٠٩ .
- (١٢٤) المصدر السابق، ص ١١١٧ .
- (١٢٥) قلعة دمشق . قلعة حصينة تقع في غرب مدينة دمشق، بناها تاج الدولة تتش بن
ألب أرسلان السلجوقي سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م، وجعلها دار إمارة، وسكنها
وزاد فيها خلفاؤه . انظر .
- Demombynes,(G.M.),La Syrie a' l'e'poque des Mamlouks d'apre's les
auteurs arabes.Paris 1923,35-37.
- (١٢٦) العيني، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٠٤ .
- (١٢٧) قرية من أعمال حمص تدعى أيضاً حوارين . انظر . ياقوت الحموي، معجم
البلدان، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٩ م، ج ٢ ص ٣١٥ - ٣١٦ .
- (١٢٨) العيني، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٢١ .

- (١٢٩) المقرئزي، السلوك، ج ٢ ص ٦٩٦.
- (١٣٠) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٥٢٥.
- (١٣١) المصدر السابق، ج ٤ ص ١٩٧ - ١٩٨.
- (١٣٢) المصدر السابق، ص ٢٩٩.
- (١٣٣) المعاصير - الآلة التي تستخدم تسمى معصرة، وهي مكونة من خشبتين مربوطتين ببعضهما، يوضع العضو المراد عصره من المذنب، ثم تشد الخشبتيان شداً وثيقاً، وكلما زاد الشد زاد الألم، وكثيراً ما أدى ذلك إلى كسر عظم المعصور أو تلف العضو المعصور. انظر: ابن إياس، المصدر السابق، ج ٤ ص ٥١؛ المقرئزي، السلوك، ج ١ ص ٧٤٠، حاشية رقم ٣؛ سعود العصفور، وسائل التعذيب في العصر المملوكي، حوليات آداب عين شمس، مج ٣١، يناير - مارس ٢٠٠٣، ص ٨٧.
- (١٣٤) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٣٦٦.
- (١٣٥) التوسيط - تعرية جسم المحكوم عليه بالموت من ثيابه، ثم ضربه بالسيف ضربة قوية تحت السرة تقسم جسمه نصفين فتندلق أمعاؤه إلى الأرض، ويعد التوسيط وسيلة شائعة في العصر المملوكي، وهي أشد من قطع الرقبة. انظر: المقرئزي، السلوك، ج ١ ص ٤٠٤، حاشية رقم ١؛ سعود العصفور، المرجع السابق، ص ٨٣ - ٨٤.
- (١٣٦) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ١ ص ٥١١.
- (١٣٧) المقرئزي، السلوك، ج ٤ ص ١١٣٠ - ١١٣١.
- (١٣٨) ابن إياس، المصدر السابق، ج ٣ ص ٤٤١.
- (١٣٩) المصدر السابق، ج ٤ ص ٣١٢ - ٣١٣.
- (١٤٠) المصدر السابق، ج ٢ ص ١٤٢.

- (١٤١) المصدر السابق، ص ١٦٠.
- (١٤٢) المصدر السابق، ج ٣ ص ١١.
- (١٤٣) المصدر السابق، ص ٧٠.
- (١٤٤) المصدر السابق، ج ٣ ص ٨٣.
- (١٤٥) المصدر السابق، ص ١٠٥.
- (١٤٦) ابن طولون، رسائله، ق ٦ ؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج ٤ ص ٩٦.
- (١٤٧) ابن طولون مفاهمة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، نسخة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٢م، ق ١، ص ٣٤٧ - ٣٤٨.
- (١٤٨) الدوادار. لقب يطلق على الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير أو غيرهما، ويتولى أمرها، وهو اسم فارسي مركب من لفظين أحدهما عربي وهو الدواة، والثاني دار بمعنى ممسك. والدوادار من مهامه تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغه عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، وتقديم البريد إليه هو وأمير جاندار وكاتب السر، ويأخذ خط السلطان على عامة المناشير والتواقيع والكتب، وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء بمرسوم، حمل رسالته وعينت فيما يكتب، وإذا جاء الكتاب أخذه الدوادار فيمسحه بوجه البريدي، ثم يناوله السلطان فيفتحه، ويجلس كاتب السر فيقرؤه عليه، ويأمر السلطان فيه بأمره. انظر المقرئزي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٢٢ ؛ القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩ و ج ٥ ص ٤٦٢ ؛ ابن طولون، نقد الطالب، ص ٥٩.
- Dozy. supplement aux Dictionnaires Arabes 2vols, Leden, 1881, I, p.469.
- (١٤٩) ابن إياس، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٠٢.
- (١٥٠) المصدر السابق، ص ٤٦١.